

الحياة الزوجية

﴿٦﴾

ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة
ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون* (سورة الروم ٣٥-٢٠)

الركن الثالث من أركان هذه الحياة - الرحمة

نقدم ان الطور الاول من أطوار هذه الحياة خاص بالزوجين وهو سكون
نفس كل منهما الى الآخر ذلك السكون الذي لانظير له بين سائر المتحابين لغير اتحاد
الزوجية وهو وجدان من وجدانات النفس لا يعرف كنهه الا الزوجان اللذان أحسنا
الاختيار فتعارف الروحان وتمازج النفسان ، فكانا حقيقة واحدة لها صورتان ،
وأن الطور الثاني يشار كهما فيه غيرهما وهو الود الذي تحدته المصاهرة بين عشيرتي
الزوجين الوديين ، ونبين في هذه المقالة ان الطور الثالث مشترك بين الزوجين وما
يرزقان من الولد

الرحمة ضرب من ضروب وجدان النفس له مشار في النفس غير مشار السكون
الى المحبوب والأنس به، وغير مشار مودة المشارك في المعيشة والمشارك في المصلحة،
ذلك الذي يثير وجدان الرحمة ، ويهز عاطفة الرأفة والشفقة، هو ما ترى في غيرك
من ضعف أو سقم ، أو حاجة يصحبها ألم، وهذا هو ملاك الحياة الزوجية عند حدوث
الأمراض والأدواء، وعند ما تندوي غصن الشبية هاتيك الأهواء ، ولولم يودع
الله تعالى الفطرة الا سكون الزوج للماسة الزوج ومودة كل منهما للآخر للتعاون
على المصالح والمنافع التي هي قوام معيشتها لكانت الحياة الزوجية نهياً في الشباب
بوساً في الشيخوخة ، سعادة في السراء ، شقاوة في الضراء، يتمتع كل من الزوجين
بصحة الآخر ونشاطه، وبسطته واغتيباطه، حتى اذا لسمت أحدها حمة الضر، أو عضته
ناب الفقر، أو نالت السن من فمائه وجدته، ألم تنل الناب من ثرائه وجدته،
استحال سكون الآخر اليه اضطراباً منه، وانقلبت مودته اياه مقاطعة له، وبالدك
لو كان من نقص عظيم، ينافي خلق الإنسان في أحسن تقويم،

لا تحسبن هؤلاء الذين يملون أزواجهم عند السقم أو الهرم فلا يرجون لهم ضعفاً ، واللواتي يملن أزواجهن في الكبر أو الفقر فلا يحفظن لهم عبداً ، قد سلمت لهم فطرة هذا النوع الكريم ، الذي خلقه الله في أحسن تقويم ، كلاً بل أفسدت الشهوات فطرتهم ، ونكست الأهواء خلقتهم ، فلبهم من الإنسان صورته وشكاه ، لا روحه ولا عقله ، ولا كرمه ولا فضله ، بل صاروا أعدى للإنسان من الشيطان ، وأضرب بمضرتة من سباع الحيوان ، وأي خير يرجوه الإنسان في نوعه ، أو الأمة في خاصتها ، ممن لا خير فيه لمن انفصل لأجله عن أمه وأبيه ، وأخته وأخيه وعشيرته التي توّبه ، واتصل به على عهد الله وميثاقه في الفطرة البشرية ، والشريعة السماوية ، فكان معه روحاً حلت في جسمين ، وهيولى تجلت في صورتين ، ثم لم يلبث بعد فراغ خلقه منه ، أن انفصل عنه ، لا يرحم له ضعفه ، ولا يعطف عليه عطفه ، ؟ أليس المشارك له في النوع والصنف ، أولى بهذه النسوة وهذا العنف ، ؟ بلى إن هؤلاء الذين استعبدتهم الأثرة ، واسترقتهم «الأنانية» ، أعداء الأهل والأقربين ، بل أعداء البشر كلهم أجمعين ،

هذا الضرب من فساد الفطرة هو في الرجال أكثر منه في النساء والصدوى فيه تفعل فعلها في البيوت تسير سير البريد من بيت إلى آخر ولا آسي بأسو هذا المرض الذي كاد يكون وباء . وأنى يوجد إلا ساءة أو تنتفع الأمة بمن عساه يوجد منهم وطب القلوب مهجور وأهله كأهل طب الأبدان منهم العالم العامل ومنهم الدجال المحتمل وقد مضت سنة السكون بأن الأمة في طور ضعفها وضعفتها تدين للدجالين المحتملين ، وثفر من العارفين الناصحين ، لذا ترى مدعي طب الأرواح عندنا من أكبر الأعوان على تخريب البيوت فمنهم الذين جعلوا طب القلوب الظاهر وسيلة لإعانة كل زوج على قهر الآخر بالتقاضي كبحض القضاة والمحامين ، ومنهم الذين جعلوا طبها الباطن ذريعة إلى استحلال المحرمات بالفعل اعتماداً على شفاعة الشافعين ، والاتسباب بالقول إلى المشايخ الميتين ،

فطر الله تعالى قلوب البشر على الرحمة ليتراحوا فلا يهلك فيم العاجز والضعيف ، وكل احد عرضة لاستحقاق الرحمة في يوم من الأيام ، وجعل سبحانه حفظ الوالدين والزوجين من الرحمة أرجح ليعنى بكل فرد من الناس أقرب الناس

منه عند شدة الحاجة الى العناية والكفالة فالزوج ازجده عند الضعف في المرض أو الكبر، كالوالدين لولدهما عند ضعفه في الصغر، بل تجد المرأة أرحم بعلها في مرضه أو كبره من أمه لو وجدت وتجد الرجل أرحم بسكنه في مرضها أو كبرها من أبيها لو وجد إذا كانت الفطرة سليمة، فإن لم يكن كل من الزوجين أرحم بالآخر في كبره من والديه فإنه يقوم مقامهما إذا يضمف كل من الزوجين ويحتاج الى الرحمة الا بعد موت الوالدين في الغالب فإن مرض وهما في صحتها فإنها يكونان بعيدين عنه لا يسهل عليها ترك بيتها ومن عساه يكون فيه من يحتاج الى رحمتها لأجل لزام ولدهما الكبير المتزوج، فظهر ان كلا من الزوجين في حاجة الى رحمة الآخر به عند ضعفه لا يقوم بها سواه من الأقربين أو المستأجرين مقامه فيها

ليست الأريحية في سكن الزوج الى زوجه عند داعية المسيس ولا أريحية مودته ومودة أهله في المباشرة والمعاملة بأ كبر من الأريحية التي يجدها الرحمة به وحنوه عليه في حال الضعف، فإن الانسان يشعر بالارتياح من عناية غيره به عند الحاجة مالا يشعر بها عند الاستغناء، فالضعفاء والمرضى والملقون يكبرون من أمر الوفاء والاعتناء، مالا يكاد يشعر به الاقوياء والأصحاء والأغنياء، « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » وان من طفياؤه أن يعتقد أن كل من يحفل به ويمنى بشأه قائما يفعل ذلك لأجل نفسه لا لأجله هو لان الناس في حاجة اليه وعو ليس في حاجة اليهم، وقد يبلغ به الطغيان الى ادخال زوجه وولده في هذا الحكم فاذا تحول مدت طفياؤه الى جزر بالمرض أو الحاجة قرق قلبه واطف شعوره وكان أعدل في الحكم وأقرب الى عرفان قدر النعمة والشكر عليها

يسمون مسألة الزواج مسألة « مستقبل الانسان » وان كنت تجد في الاغرار من لا يفكر عند ارادة الزواج بمستقبله مع من يختاره زوجا له فانك لا تكاد تجد من لا يعبأ بهذا المستقبل اذا ذكر به فأعمل فكره فيه الا ما يكون من بعض المترفين اذا فتن أحدهم بجمال امرأة يود أن يقضي منها وطرا ثم لا يبالي ما يكون بعد ذلك ومثل هذا اذا ملّ طلق ولا تكاد تجد امرأة ترضى بالتزوج بمثلها، على أن هذا النوع من الأزواج، هو أشبه بالاستنجار أو البغاء منه بالزواج، وإنما

الزواج الشرعي الطبيعي ما كان عن ارادة الاشتراك في الحياة مدة الحياة والا كان متعة بالنفس والمخادعة ولا أرى الشيعة يدينون بجواز هذا الضرب من المتعة لان النفس محرم بالاجماع لاخلاف في ذلك بين سني وشيعي . واذا كانت مسألة الزواج هي أعظم مسائل مستقبل الانسان الخاصة أفلا يكون من أعظم الشقاء أن يبدأ أمر الزوجين بالسكون والود في السراء ، وينتهي بالاضطراب والتخاذل في الضراء ، يشكر أحدا الزوجين للآخر عند إمكان استبداله أو الاستغناء عنه ، ويكفره أحوج ما كان اليه ، أي عاقل يرضى بهذه الخاتمة السوءى اذا علم بها أو ظن أن ستكون؟ لا شيء ، يخفف أثقال الفقر وأوزاره عن كاهل الرجل يتحملة مثل المرأة التي ترحمه في فقره فتظهر له الرضى والقناعة ولا تكلفه ما تعلم ان يده لا تنبسط له فما بالك اذا كانت ذات فضل تواسيه به ، ولا شيء يعزي الانسان عن مصابه في نفسه وغيره مثل المرأة للرجل والرجل للمرأة اذا ظهرت عاطفة الرحمة في أكل مظاهرها فشعر المصاب بأن له نفساً أخرى تمده في القوة على مدافعة هذه الموارض التي لا يسلم منها البشر، واعمكس الحكم في القضيتين ، يتجلى لك وجه الصواب في الصورتين ، اذا كان لركن الزوجية الاول وهو السكون المهود تأثير في الثاني وهو المودة فلا ريب أن الركن الثالث وهو الرحمة يكون أثرا للركنين قبله أو فرعاً لها فعلى قدر السكون والمودة بين الزوجين في النماء ، تكون الرحمة بينهما في البلاء ، لأن مصاب الوديد المحبوب يعيد للنفس ذكرى جميع حسناته ، وطيب أيامه وأوقاته ، ويمثلها في أبهى حللها ، ويعرضها على النفس في أجل معارضها ، (المعرض هو التوب الذي تجلبى فيه العروس) فيخيل الى المحب ان تلك الحسنات والذات قد اجتمعت وان المصاب يحاول أن يثنت شملها ، ويقطع حبها ، فهو يوثب لذاته المجتمعة في شخص محبوبه ، ويحاول سلب منافعه باغتتيال نفس وديده ، فمن أراد أن يحسن مستقبله في هذه الحياة فليجتهد أولاً في حسن اختيار الزوج ثم ليخلص له المودة ثانياً ليتمتع بوفائه أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً

ما أجهل الرجل يسي - معاشره امرأته وما أحق المرأة تسي - معاشره بهلها ، يسي أحدهما الى نفسه من حيث يسي - الى الآخر فهو مضنون غالباً ومغلوباً وما رأيت

ذنباً عقوبته فيه كذنب اسائة الزوج الى الزوج بل أرى العذاب يضاعف في الدنيا على ذنب الزوجية فيكون زوجاً لا فرداً وكل ذنب له عقوبة في النفس أو فيما يتعلق بالنفس تكون أثراً طبيعياً له الاذنب أحد الزوجين في مضايبة الآخر فانه هو نفسه عقوبة لنفس مقترفه يؤلمها ويمضها ثم انه يلد لها عقوبة أو عقوبات أخرى تكون أثراً له كسائر الذنوب . ولكن أثر ذنب الزوجية ليس كآثار غيره لأنه هو ليس كغيره فكبر الآثار وصغرها تابع لحال المؤثرات

أنهاك أيها المعزبة أن تسارع الى الزواج مهما تعادت بك العزوبة الا بعد حسن الاختيار، وأنهاك أيها الأيم وأولياءك أن تيجبوا خاطباً الا بعد التروي في الاختيار، وأعظكم اذا أتيا تزوجاً فلم تجدا ذلك السكون النفسي كاملاً، وذلك الود الطبيعي مواصلاً، أن يتجنب كل منكما ويتودد الى الآخر ما استطاع ويجعل أكبر همه في هبته واستيابه قلبه لتحسن الحال، ويرجى حسن العاقبة في المآل، فان عجزا عن ذلك بعد الإخلاص في طلبه، والجهد في إدراكه، فليترقا بفن الله كلا من سعته وكان الله عليماً حكيماً

اذا رزق الله الزوجين الولد تنمو به بينهما المودة والرحمة ويكون هو منبهاً لرحمتها فاشتراهما في هذه الرحمة الوالدية التي لها مصدر واحد ومورد واحد يؤكده الصلة بينهما فييناها معنصمان بحبل الزوجية الذي هو من أقوى الروابط الحيوية اذاهما معنصمان بحبل الوالدية الذي هو أقوىها على الاطلاق وكيف لا يكون كذلك ورابطة الزوجية هي طاقة من طاقات حبل الوالدية اذ الوالدان هما الزوجان قد انتجا فكملة حيويتهما وجاءت بشرتهما .

كل واحد من الوالدين يشعر من حيث هو والد بما يشعر به الآخر ويملكه الوجدان الذي يملك الآخر وتولد فيه الآمال التي تتولد في الآخر ويكون جده وسميه مثل ما يجد ويسعى له الآخر ويرى سعادته عين سمادة الآخر، رأيت هذا الاتحاد في هذه الشؤون كلها اذا صافح اتحاد الزوجية وعانقه كيف يكون حال المتحدنين في تراحمها وتعاطفها بل في تمازجها وفناء كل منهما في الآخر؟ لو كانت المسألة نظرية محضة لحكم الناظر فيها مع سلامة الفطرة بأن الحياة الوالدية

هي كمال الحياة الزوجية وان هذا الكمال هو الذي ليس بعده كمال فالوالدان هما أسعد الناس بنفسهما وولدهما لا يتصور أن يقوي الزمان على شت شملها ، أو نكث فتلها ، وإن اتحادهما هذا لا كبر عمون لهما على أحداث الزمان ، وأفعال الطبيعة في الانسان ،

ما كان لسليم الفطرة الذي يعيش بمعزل عن فاسدي الأخلاق معتل الطباع أن يتخيل وقوع نزاع يتبادى بين الزوجين أو الوالدين به المفاضلة التي تفضي الى المباغضة ، والمناسبة والمناهضة ، على نحو ما يكون بين أصحاب التراث الموروثة ، والاضغان المحبوة ، كما يقع الآن على مرأى منا وسمعنا والمعناليه من قبل . لكن الفساد قد بلغ من هذه الأمة مبلغاً لا يصدق عاقل ، ولا يتخيله فاضل ، إلا أن يرى بعينه ، ويسمع بأذنه ، وقد أحصى الأستاذ الامام عليه الرحمة قضايا سنة في احدي المحاكم الأهلية فبان له أن ٧٥ قضية منها كانت بين الأقربين فما بالك بقضايا المحاكم الشرعية ولعل ٩٩ منها في المنة بين الأزواج والوالدين

سبق القول بأن الحياة الزوجية هي أصل الحياة الوطنية والحياة المليية فإذا كانت الأولى سعيدة كان ذلك أصلاً في سعادة الأمة وإذا كانت شقية كان ذلك علة لشقاء الأمة لأن الأمة مؤلفة من هذه البيوت فمن لاخير فيه لأهله لاخير فيه لأمة ، كما علمت من حديث «خيركم خيركم لأهله» فما دامت حياتنا الزوجية مخلة معتلة فلا يرجى لنا أن نحيا حياة مليية طيبة . وان هذا الشقاء في الأمة والبيوت هو في المسلمين أثر من آثار ترك عقائدهم وآدابهم الدينية ، ونقطيع روابطهم المليية ، فحمارتهم لسعادة الدنيا دليل على أنهم - ان لم يعودوا ويتوبوا - سيخسرون سعادة الآخرة وذلك هو الخسران المبين

نقف عندهذا الحد في بيان أركان الزوجية الثلاثة التي نطقت بها الآية الكريمة في السورة التي ورد فيها أن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها فقد شرحنها بما أمته علينا الفطرة ، وهدتنا اليه الفكرة ، اذ هي التي أرشدتنا الى ذلك بخاتمها « ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »